د. محمود بن أحمد الدوسري

الرجل والمرأة وأصل النشأة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الرَّجل والمرأة وأصل النَّشأة

النَّاس في أصل الخِلْقَة سواء، فالرِّجال والنِّساء متساوون في النَّشأة والأصل؛ فكلُّ النَّاس لآدم، وآدم خُلِقَ من تراب، فالكلُّ سواء؛ رَحِمٌ واحدة، ونَفْسٌ واحدة، وماءٌ واحد، يخرج من بين الصُّلب والتَّرائب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

«**وفي الإخبار بأنَّه خَلَقهم من نَفْسٍ واحدة**، وأنَّه بَثَّهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصلٍ واحد؛ **ليعطفَ بعضُهم على بعض، ويرفقَ بعضهم على بعض**»(١).

فالله تعالى نبَّه على أنَّه خَلَق جميع النَّاس من آدم عليه السلام، وأنَّه خَلَق منه زوجَه حوَّاءَ، ثم انتشر النَّاس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: ليألفها ويسكن إليها، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا أُلْفَةَ بين روحين أعظم ممَّا بين الزَّوجين(٢).

«ولو أنَّه تعالى جَعَل بني آدم كلَّهم ذكوراً، وجعل إناثَهم من جنسٍ آخَرَ من غيرهم من جانٍّ أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس. **ثم من تمام رحمته ببني آدم أنْ جَعَل أزواجَهم من جنسهم**، وجعل بينهم وبينهنَّ مودَّة: وهي المحبَّة، ورحمة: وهي الرَّأفة، فإنَّ الرَّجل يُمْسِك المرأة إمَّا لمحبَّته لها أو لرحمةٍ بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجةٍ إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك»(٣).

«والحقيقة التي تتضمَّنها الإشارة إلى أنَّه من النَّفس الواحدة ﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾..

كانت كـفيلةً – لو أدركتهـا البشريَّة – أن تُوَفِّـر عليها تلك الأخطاءَ الأليـمة، التي تردَّت فيهـا، وهي تتصوَّر في المرأة شتَّى التَّصـوُّرات السَّخيفة، وتراها منـبع الرِّجس والنَّجاسة، وأصل الشَّر والبلاء.. وهي من النَّفْس الأُولى فِطْرةً وطَبْعاً، خَلَقَها الله لتكون لها زوجاً، ولِيَبُثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، **فلا فارق في الأصل والفطرة، إنَّما الفارق في الاستعداد والوظيفة.**

ولقد خبطت البـشريَّة في هذا التِّيه طويلاً. جرَّدت المرأة من كلِّ خصـائص الإنسانيَّة وحقوقها فترةً من الزمان. متأثِّرةً بتصوُّرٍ سخيفٍ لا أصل له. **فلمَّا أن أرادت معالجةَ هذا الخطأ الشَّنيع اشـتطَّت في الضَّـفَّة الأُخـرى، وأطلقت للمـرأة العنان،** ونسيت أنَّهـا إنسان خُلِقَت لإنسان، ونَفْسٌ خُلِقَت لنفس، وشَطْر مُكَمِّلٌ لِشَطْر، وأنَّهما ليسا فَرْدين متماثلين، إنَّما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرَّباني القـويم يردُّ البشـريَّة إلى هذه الحقـيقـة البسـيطة بعد ذلك الـضَّلال البعيد»(٤).

آيات تؤكّد وحدة النَّشأة والأصل:

لم يُطْلِع الله عـزَّ وجلَّ أحداً من البشـر على خلق السَّـماوات والأرض، ولا على خلق أحد من البـشر، فمسألة أصل الخلـق وأصل النَّشأة إذاً ليست مثـار ادِّعاء من أحد، ولا مجـال جدال يخوض فيـه أحد من البشر، فـهي غيب لا يمكن لأحد من البـشر أن يدَّعي العلم به، ومصداق ذلك قـول المولى تبارك وتعالى: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: ٥١].

وعلى هذا، فنظريَّات بداية الخَلْق، وتطوُّره، وفَرَضِيَّات جنس المرأة، وأصلها والتي انتشرت في الكتابات القديمة لا أصلَ لها، ولا دليلَ عليها، ولا برهان.

وليس هناك مصدر نَطْمئنُّ إليه، ونثق به كلَّ الثِّقة فيما يحكيه لنا عن الخَلْق وبدايته إلاَّ

القـرآن العظيم؛ لأنَّه من لدن حكيم خبـير، والقـرآن يقرِّر وِحْـدة الأصل للجنس البـشري الذُّكوري منه والأنثوي، فالبشـر جميعاً لآدم عليه السلام، فأصلهم واحد وهو آدم عليه السلام، ونشأتهم جميعاً نشأة واحدة بعد هذا الأصل.

وهناك آيات كثيرة تُقرِّر وحدة النَّشأة والأصل، ومنها قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فالمُلاحَظ هنا: أنَّ كُلاً من الرَّجل والمرأة استويا في مراحل التَّكوين من نطفةٍ، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم تُكسى العظام باللَّحم، إلى أن يتكوَّن جنيناً كاملَ الخِلْقَة ويخرج إلى الحياة، فالقرآن الكريم يُبيِّن بوضـوح لا لبسَ فيه المراحل التي يمرُّ بها الجنس الإنساني - ذكوراً وإناثاً - في أطوار تكوينـه الأُولى، ولم تأت آيةٌ واحدة تُـبيِّن اخـتـلاف تكوين الرَّجل داخل الرَّحم عن تكوين المرأة في مراحل التَّكوين الأُولى، **وبناءً عليه**: لا ينبغي أن يتميَّز الرَّجل عن المرأة، أو تتميَّز المرأة عن الرَّجل في أصل الخِلْقَة، فهي مساواةٌ عادلة(٥).

ويؤكِّد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على المساواة العادلة بين النِّساء والرِّجال في أصل الخِلْقَة بقوله: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»(٦).

والمعنى: أنَّ النِّساء نظائـر الرِّجال وأمثـالهم في الخَلْق والطِّباع، فكأنهنَّ شُـقِقْنَ من الرِّجال، وحوَّاءُ خُلِقَت وشُقَّت من آدم عليه السلام، **والشَّقائق**: جمع شـقيقة، ومنه: شـقيق الرَّجل، وهو أخوه لأبيه وأمِّه، ويُجْمَع على أشقَّاء أيضاً، بتشديد القاف(٧).

وفي الوقت الذي يقرِّر فـيه الإسلام: أنَّ الرَّجل والمرأة مخلوقـان من جوهرٍ واحد،

وهو التُّراب، **نرى الفلسفات الأُخرى**: تنظر إلى المرأة على أنَّها رجس، أو أنَّها لا روح فيها، وأنَّ روحها شيطانيَّة أو روح شِرِّيرة كما كان الرُّومان يقرِّرون ذلك في (القرن السَّادس)؛ لأنَّها من خَلْقِ إله الشَّر في حين خُلِقَ الرَّجل - في اعتقادهم - من قِبَل إله الخير[٨]!

الهوامش:

(١) تفسير السعدي، (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ٥٧٤).

(٣) المصدر نفسه، (٦/ ٣٢٦).

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٥٧٤).

(٥) انظر: موقف القرآن الكريم من الدعوات المعاصرة لتحرير المرأة، لرنده فؤاد حصاونه (ص ٣٥). حقوق المرأة وواجباتها في الإسلام، لمحمد عبد الرحمن الخلوف (ص ٥٨).

(٦) رواه أبو داود، (١/ ٦١)، (ح ٢٣٦). والترمذي، (١/ ١٩٠)، (ح ١١٣). وأحمد في «المسند»، (٦/ ٢٥٦)، (ح ٢٦٢٣٨). وأبو يعلى في «مسنده»، (٨/ ١٤٩). والدارمي في «سننه»، (١/ ٢١٥)، (ح ٧٦٤). والبيهقي في «الكبرى»، (١/ ١٦٨)، (ح ٧٦٧). وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، (١/ ٨٠)، (ح ١١٣). و «صحيح الجامع الصغير»، (١/ ٤٦١)، (ح ٢٣٣٣). وحسنه في «صحيح سنن أبي داود»، (١/ ٧٢)، (ح ٢٣٦).

(٧) انظر: معالم السنن، للخطابي (١/ ٧٩)، عمدة القاري، للعيني (٣/ ٢٣٥). تحفة الأحوذي، للمباركفوري (١/ ٣١٢). عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد آبادي (١/ ٢٧٥). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري (٢/ ١٣٤).

(٨) انظر: المرأة المسلمة، لوهبي سليمان غاوجي (ص ٣٢). حقوق المرأة في الإسلام، د. صالح أحمد جرادات (ص ٣٢).

هذا الكتاب منشور في